مشاركة الأدب الانجليزى
فى الدراسات العربية
نقلا عن « برنارد لويس »
للأستاذ عبد الوهاب الأمين

٤ — القرن التاسع عشر وما بعده

لقد درسنا حتى الآن حياة رجال ذوى شخصيات أكاديمية ، فلنقف قليلاً لننظر فى حياة ثلاثة من رجال الإنجليز الذين كان اهتمامهم باللغة العربية وبلاد العرب ينبع من معين آخر ، والذين يختلف عملهم الذي ملأ حياتهم كلها ، عن عمل أولئك الذين سبق أن درسناهم .

وأول هؤلاء وأشهرهم هو « سر رجارد برتون » (١٨٢١ — ١٨٩٠) فبالرغم من أنه بدأ دراسته للغة العربية مبكراً وهو فى أكسفورد فإنه ترك الجامعة قبل أن يتمها ، وذهب إلى الهند لكى يعمل فى الجيش البريطانى . وعاش هناك بضع سنين ، قضى أكثرها فى المناطق الإسلامية ، ودرس اللغتين العربية والفارسية ، واللغات الإسلامية الأخرى على أيدى مدرسين من المسلمين ، وعند عودته إلى انجلترا نشر أربعة كتب عن الهند

وفى سنة ١٨٥٣ زار مصر زيارته الأولى ، وقام برحلة على ظهور الجمال من القاهرة إلى السويس . وبعد سفر ملىء بالحوادث غادر ذلك الميناء قاصداً ينبع فى باخرة حجاج ؛ وتنقل فى الحجاز قاصداً زيارة المدينة ومكة ، ثم عاد إلى انجلترا عن طريق جدة ومصر . ونشر بعد عودته وصفاً لرحلاته هذه فى ثلاثة مجلدات طبعت عدة طبعات ، ولا تزال تعتبر مرجعاً عن البلاد التى وصفها . ثم أعقب ذلك عدة سنين من أسفار متعاقبة

وفي إحدى المرات قام برحلة استكشاف فى المناطق المتوحشة من شرق أفريقيا والحبشة ، متنكراً فى زى تاجر عربى . وقد عاد بمعلومات ثمينة عن تلك المناطق التى تكاد تكون مجهولة . وفيما تلا ذلك من السنين ساح فى وسط وغرب أفريقيا ، والأقسام المغمورة من الأمريكتين .. ونراه فى سنة ١٨٥٥ فى القرم يخدم مع القوات البريطانية . وفى خلال المدة ما بين سنة ١٨٦٩ و ١٨٧١ كان فى دمشق وساح فى سورية ومعه زوجته و « إدوارد هنرى پالمر » ونشر هو وزوجته وصفاً لتلك البلاد ، وعاد بعد سنوات إلى مصر وأشرف على أعمال جيولوجية كانت قائمة في مناطق من البلاد كانت فى ذلك الحين أبعد أقسامها عن المدنية

وعلى هذا فقد كانت حياته كلها مغامرة وخطراً متصلاً ، ذهب أغلبها فى السفر والسياحة فى أقطار الأرض المتباعدة ، ومع كل ذلك فقد وجد من وقته متسعاً ينشر فيه عدة كتب تكلمنا عن بعضها ، ويضم الباقى ترجمة كاملة لكتاب « ألف ليلة وليلة » وهى ترجمة فريدة بين الترجمات الأوربية بالنظر لتمسكها المخلص بالنص الأصلى : ذلك التمسك الذى أثار فضيحة ضئيلة بين معاصريه الشديدى التزمت

ومن بين الرحالين الإنجليز المشهورين فى الشرق الأوسط « ولفريد سكادن بلنت » (١٨٤٠ — ١٩٢٢) وقد بدأ حياته بداية دبلوماسية ، ومع ذلك فقد أخذ اهتمامه يطرد وينمو بقضايا الشعوب المظلومة فى العالم ، وكرس آخر أيامه للمطالبة بحقوقها . وكان اهتمامه منصرفاً بصورة خاصة إلى الهند وأرلندة ومصر . وكان من كبار السائحين وزار أقطاراً عديدة . فقام — بصحبة زوجته — بزيارة البلاد العربية فى الشرق الأدنى وفى شمالى أفريقيا . وفى سنة ١٨٧٨ زار نجداً حيث استقبله وزوجته أمير حائل استقبالاً حسناً ، وقدم لهما بعض الخيول المنتقاة ، وقام بإبلاغهما محفورين إلى بغداد . وقد اتصل فى خلال زياراته لمصر والهند بالزعماء الوطنيين ويعرفه كل من جمال الدين الأفغانى وعرابى باشا معرفة تامة . وقد نشر عدة كتب فى تأييد القضية المصرية . وفى سنة ١٨٨١ استقر فى دار له قرب القاهرة حيث عاش عيشة المصريين : يرتدى الملابس المصرية ويتكلم اللغة العربية

وكانت زوجته « الليدى آن بلنت » عالمة باللغة العربية بالإضافة إلى خبرتها بالفروسية والأسفار ، وتشتمل كتبها

المطبوعة على كتاب عن العراق وآخر عن نجد ، وترجمة للمعلقات نظمها زوجها بالإنكليزية شعراً .

وهناك رحالة ثالث هو « چايس دوتى » (١٨٤٣ ـ ١٩٢٦) الذى يذكر بكتابه الخالد عن جزيرة العرب . فقد قام — بعد تحضير لمدة سنة كاملة فى دمشق بدراسة منسمة للغة العربية — برحلة استكشافية فى قلب بلاد العرب . وعلى عكس ما قام به من سبقه من الرحالين ، فإنه كره أن يخفى قوميته ودينه ، فساح فى كل مكان كانجليزى مسيحى ولم يقلل هذا الإصرار من جانبه من أخطار رحلاته . وزاد كتابه الذى نشر فى انجلترا بعد عودته فى سنة ١٨٧٨ فى إثراء معلوماتنا عن بلاد العرب . ويحتوى سجل أسفاره على ثروة من المعلومات عن جغرافية تلك البلاد وطبيعة أرضها ، كان أغلبها غير معروف قبل ذلك . وقد أعيد طبع كتابه قبل حوالى العشرين عاماً وكتب له « لورنس » مقدمة

ولنعد الآن إلى علماء العربية فى الجامعات . فقد أظهرت السنين الأولى من القرن العشرين أن مستوى الدراسات العربية لم يكن بأية حال أقل منه فى أعظم أيام القرن التاسع عشر ، فقد أنشئت الدوائر العربية فى الجامعات الاسكتلندية والجامعات الفرعية . وأنشأت جامعة لندن فى الحرب الماضية كلية جديدة مقتصرة على العلوم الشرقية هى « معهد الدراسات الشرقية » .

أما العلماء الذين سنتطرق إليهم الآن ، فهم من الجدة بحيث يذكرهم الطلاب والزملاء بعطف فى انجلترا والشرق . فقد كان السر توماس أرنولد الذى توفى فى سنة ١٩٣٠ ، أول من شغل كرسى الدراسات العربية والإسلامية فى معهد الدراسات الشرقية فى لندن . وقد تثقف فى اكسفورد ، وأنفق عدة سنين فى الهند أستاذاً للفلسفة فى الكلية الإسلامية فى عليكرة . وأشهر مؤلفاته هو « تعاليم الإسلام » : وهو وصف لامتداد العقيدة الإسلامية أكسبه فى التو منزلة ملحوظة ، وترجم إلى اللغتين : التركية والأوربية . وفى كتابه الآخر « الخلافة » تعقب تاريخ هذا النظام ، وناقشه من وجهتى النظر الفلسفية والفقهية . ونشر بالإضافة إلى ذلك عدة دراسات قيمة عن الرسم والتصوير الإسلاميين : ذلك الموضوع الذى كرس له عدة سنين من حياته . وذهب فى سنة ١٩٣٠ إلى القاهرة فتوفى هناك على الأثر

وهناك مستشرق آخر ذو مكانة هو « لى سترانج » الذى توفى فى سنة ١٩٣٤ ، ويمكن أن يكون القول الآتى له مفتاحاً لآثاره : « إذا كان المطلوب جعل تاريخ الإسلام شيقاً ، وإذا كان المقصود فى الحقيقة فهمه على الوجه الصحيح ، فمن الواجب إعداد الجغرافيا التاريخية للعصور الوسطى إعداداً دقيقاً » . وقد كرس « لى سترانج » أفضل سنى عمره لدراسة الأدب العربى والفارسى الخاص بالجغرافيا . وتعتبر كتبه التالية : « بغداد فى عهد الخلافة العباسية » و « فلسطين تحت حكم المسلمين » و « أراضى الخلافة الشرقية » خيرة الكتب فى هذه الموضوعات . ونشر أيضاً عدداً من النصوص الجغرافية ، وكثيراً من الدراسات القصيرة . ومنذ سنة ١٩١٢ قد عمى تقريباً . غير أن نقصاً خطيراً كهذا فى كيانه لم يعقه عن الاستمرار فى عمله

ومات عالم آخر فى العربية مشهور فى السنة التى توفى فيها « لى سترانج » هو « أ . أ بيفان » تلميذ « وليم رايت » وكان أكبر همه منصباً على الشعر العربى القديم . وقد نشر نقائض جرير والفرزدق على عهدته . والنادرة التالية تعطى فكرة عن دقته العظيمة : فقد روى زميله « ا . ج . براون » العالم المعروف بالفارسية أن بيفان زاره يوماً ، وكان شديد الحزن حتى لقد خيل له أن كارثة حاقت به ، ولكن حقيقة ما كان قد وقع هو أن « بيفان » اكتشف خللاً فى وزن أحد الأبيات فى طبعته للنقائض !

ولا يتسع المجال للكلام عن كثيرين من العلماء فى هذا العهد كليال محرر « المفضليات » و « لين ـ بول » مؤلف عدة من الكتب عن تاريخ الإسلام ، وعن المسكوكات ، و « امبروز » محرر عدد كبير من النصوص العربية التاريخية المهمة وكثير غيرهم . غير أن هناك عالماً واحداً يستحق أكثر من الذكر العارض هو « د . س . مارجليوث » الذى كان أستاذ اللغة العربية فى اكسفورد عدة سنين ، والذى اعتبر الشخصية الأولى بين علماء العربية من الإنجليز مدة طويلة من الزمن ؛ وكان عضواً فى المجمع